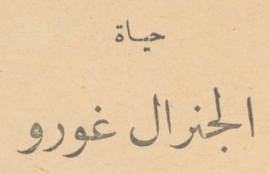
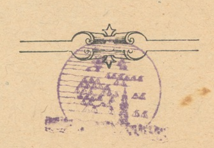


حياة

الجنرال غورو



مطبعة القومسيرية العليا



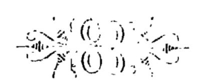
﴿ الجنرال غورو ﴾

المندوب السامي للجمهورية الافرنسية في سوريه وكليكيه

والقائد العام لجيش الشرق

حياة

الجنرال غورو



مطبعة القومسيرية العليا

مقدمة

لما كان فخامة الجنرال غورو مطمح انظار السوريين على اختلاف نزعاتهم رأينا ان نتحف لغتنا العربية بلمحة وجيزة عن حياته واعماله العظيمة اقتطفناها عن بعض الكتب الافرنسية هدية نزفها الى عشاق الادب وسائر مواطنينا الكرام عساها توثق عرى الصداقة والولاء بينهم وبين الرجل الكبير الذي تجلى امامهم اخلاقه السامية وصفاته الفطرية الممتازة فضلاً عن مقدرته الحربية التي وقف العالم امامها معجباً مبهوتاً .

حياة الجنرال غورو

احتشد جمع غفير في محطة باريس يوم تداعى الناس اليها لاستقبال الجنرال غورو فكان بينهم رجل وقفت بجذائه ابنته وهى حديثة السن فوقع نظرها على الجنرال فهمست في اذن ابيها قائلة : ابتاه ما اجمل هذا القائد فان له ولا ريب سمات اعاظم الرجال .

فان القائد المنوه به يزري بالرمح في اعتدال قوامه وعينيه البراقتين تضاهيان المرآة صفاء وصوته الشجي يجدد الحياة بنبراته فذلك كله اثر في مخيلة الفتاة الصغيرة المتأثرة بسير كبار الرجال فرأت في هيئة القائد الكبير صورة تنطبق على الصفات التي نعت بها التاريخ القواد العظام

ولا نعني بالرجل العظيم رجل الفتوحات . فالجنرال غورو لم يصل الى مركزه السامي باخضاع الثوار في مراكش ولا بنزعة النعرة التي في انوف الالمان فانه نال المنزلة الباذخة في كل قلب لانه رجل كل الرجل اى رجل الارادة والعزم والعمل ورجل الرقة واللطف والكياسة وبكلمة واحدة رجل العقل والقلب معاً . ان رجال الكمال في العالم نادرون جداً . فنرى في اكثر الاحيان اكبر قواد الارض يأتون من الامور الصغيرة ما لا يوازى شهرتهم . فكثير من كتاب الكتب الاخلاقية لاخلاق لهم ، كما ان اكثر الروائيين الذين يتيمون عواطف الناس ويقعدونها مجردون عن كل عاطفة . هذا بقطع النظر عن الهيئة الخارجية التي كثيراً ما تخون اصحاب المآتي الكبيرة . فالمرشال ده لكسمبورغ كان احدب « وسوات » كان له هيئة كاتب عدل ، وشوبنهور » شبه بمأمور صغير . « وبلزاك » كان يحسبه الناظر اليه احد المشعوذين .

بعض هذه السطور مأخوذة من كتاب Silhouettes de guerre

اما منظر الجنرال فكاسمه العظيم ، فكأنّ حورية سماوية وضعت فى نفسه يوم ولد كل مزايا النفوس الكبيرة ثم البدت هذه النفس هيئة جسدية متناسبة جميلة فكان غورو جميل النفس جميل الجسد . ثم ان المعارك ذهبت باقسام من ذلك الجسد فلم تغير شيئاً من اعتدال قوامه بل اكسبت وجهه هيئة تذكر الناظر بهيئة الشهداء ، ففى الذراع المقطوعة والكتف المخروقة بالرصاص والارجل التى اصابتها القنابل ولم تحصدها هالة من المجد تمثل لنا اكليل الوطنية و الاخلاص وسمو المبادئ

وهذا كله لم يفل من عزم الجنرال فتراه مثابراً على العمل فى خدمة الانسانية وانهاض الشعوب على اختلاف مذاهبها حيثما ارسلته حكومته ولا يألو جهداً بعد ان حررت دولته تلك الشعوب فى سبيل ترقيتها وانالتها استقلالها وضمان قوميتها واسعادها

اما ذراعه فقطعت يوم تولى حملة الدردنيل حيث استلم القيادة فى ٢٣ ايار سنة ١٩١٥ وفى ٣٠ حزيران بينما كان داخلاً الى مستشفى نقال ليتفقد الجرحى اصابته وهو على مقربة من الباب قنبلة رفعته عن الارض الى شجرة قريبة ثم هوى الى الحضيض مخرق الجسد مكسر الفخذين وذلك ما يدل على ان الاتراك تعلموا فى مدرسة البرابرة ان يسددوا رصاص مدافعهم على المرضى والممرضين ولا غرو فهم كالالمان لم يحترموا فى هذه الحرب مستشفى ولا رحموا مريضا !

وقد حمل الجنرال الى الباخرة « تشاد » التى سارت به فى طريق مرسيليا ، وفى اليوم الثانى بدات الذراع المكسورة تتلطخ بالسواد وقضى الجراحون بضرورة قطعها ، فقدمها الجنرال للقطع مبتسماً للضحية العظمى. وبعد الوصول الى مرسيليا وضع فى مستشفى شارع « بيزه » حيث استقدمت امه وقضت شهرين امام سريره تمرضه بحنو الامهات، وبعد انتهاء الشهرين طلب الرجوع الى الخدمة ، فرجع مقطع الاوصال مشوه الجسد ولكن قلبه الكبير كان لا يزال حياً خافقاً، ومزاياه العقلية وارادته الحديدية مافارقت راسه ، بل كأن تضحياته زادته حماساً ونشاطاً وعلو نفس

اما اسمه فلا يذكر الا وتذكر معه اسماء حوادث عظيمة : أسر

ساموري ، حرب الادرار ، الدخول الى فاس ، معارك الارغون وشمبانيا ، الدخول الى ستراسبورغ . وحياته العسكرية سلسلة اسفار مضنكة بدأت من قلب السودان واخترقت جبال الاطلس وافريقيا الشمالية والغربية ، ثم مرت باسيا يوم حملة الدردنيل واكملت العمل العظيم في الساحة الغربية

اما تقدم الجنرال فسريع . فقد تدرج من رتبة ملازم ثان سنة ١٨٩٠ الى رتبة جنرال سنة ١٩١٥ ولقد كان التقدم سريعاً بقدر ما كان الثمن غالياً . فكل عضو من اعضائه يحمل اثر جرح واثر معركة فالذراع ذهبت ضحية معارك الدردنيل والاوراك جرحت في كورما ، والكتف خرقت في الارغون

وهو يحمل صليب جوقة الشرف الكبير وصليب الحرب مع اربع سعف نخل . والمدالية الافريقية بثماني نجوم . والمدالية الحربية . وهكذا فالجنرال الشاب الذي لم يتجاوز الخمسين يحمل على صدره وفي جسده علامات ثلاثين معركة افريقية واسيوية وخمس معارك كبرى اوربية .

ولعل في هذه السطور ما يحمس قلوب الذين يدعون الوطنية ، ويقيم ويقعد نفوس الشبان السوريين ، فيتشبهون .

حداثته

ولد هنرى غورو فى باريس سنة ١٨٦٧ . وهو ينتمى الى أسرة قديمة لم يدخل منها احد فى السلك العسكرى . فابوه وجده واجداد اجداده كلهم اطباء . اما بيار غورو — اخو الجنرال — اعتنق الحياة العسكرية متبعاً آثار اخيه وقتل فى هذه الحرب .

اما عائلة غورو فمن مقاطعة « فانده » وقد توطن جده فى باريس . وابوه اقترن بنورماندية وسكن فى شارع « روباك » نمرو ٤٠ حيث ولد وترعرع الجنرال الذى قدر له ان يكون بطل الارغون . فى ذلك البيت الورع الصالح عاش الغلام ومشى تحت نظر ابيه وعناية امه فى طريق البر والشرف . يقول العلم والعلماء ان طباع الانسان وهيئته تكيفها عوامل الوراثة والمحيط الخارجى . وهنا يمكننا القول ان الجنرال نشأ قوياً كاجداده سكان الفانده الاشداء . واخذ زرقة عينيه من سماء « تورين » وهدوء طباعه من هدوء النورمانديين اجداد امه . وميله الى الادب والشعر والفنون الجميلة تولد من سكنه فى قلب باريس مدينة التصوير والشعر والخيال .

وادخل هنرى غورو فى مدرسة ستانسلاس وهناك كان ولداً كل الولد . فكان فى اللعب اول اللاعبين وكان بشوش الوجه ضحوك الطبع حاضر الذهن ذا مقدرة غريبة على ايجاد النكتة والباسها ثوباً هزلياً . وهكذا فانه كان مصدر سرور المعلمين والرفقاء كما كان فى الوقت نفسه نصير الضعيف والمظلوم . فما وقع تلميذ الا كان غورو اول من اسرع لانهاضه . وما حدثت مشكلة بين التلاميذ الا سمع فى الاروقة نداء التلامذة وهم

يصرخون « غورو » فكان الولد الحمس يقف بين المتخاصمين ويسمع قضيتهم ويحكم بالعدل . (١) ومما يذكر عنه انه كان يستعمل اللطف فى اقناع الخصمين واذا اعيته الحيلة ولم ينجح اللطف كان يشمر عن ساعديه ويدافع عن حق المظلوم بالقوة .

وقد ساعده الحظ فاعطاه اباً حكيماً لحظ فى ابنه منذ الصغر الميل الشديد الى الاعمال العظيمة فلم يضغط على مواهبه ولم يجبره على تعلم الطب بل نشطه على التعمق بدرس التاريخ اللازم للضباط وادخله مدرسة « سان سير » .

وهناك لحظ المعلمون مزايا هذا الشاب وحسن خلقه ، فرأوا فيه التوازن الكامل بين القوى العقلية والجسدية ، ورأوا حب الاستقلال والشخصية التى تجبر كل من يقترب منه على احترامه ورأوا التحمس للامور العظيمة والاسراع الى كل عمل محفوف بالمخاطر .

وخرج غورو من مدرسة سان سير سنة ١٨٩٠ اما فرقته التى دخل اليها برتبة اونباشى فلم تنس الشاب ذا الروح الابية التى سرى فيها الى كل القلوب صدق العزيمة والوطنية الحية والايمان الحديدى

وفى تلك السنة — ١٨٩٠ — كان السواد الاعظم من الضباط يعتقد ان ساعة استرجاع الالزاس ليست بعيدة فكان غورو ممن طلبوا الى الحكومة ان يرسلوا الى حامية الحدود على امل ان يكون اول من يقدم صدره هدفاً للحراب وقت نشوب الحرب .

وانتظر غورو ثلاث سنوات ليزيل الغضاضة والمذلة اللتين لحقتا بوطنه سنة السبعين . فكان انتظاره عبثاً واذ ذاك طلب من القيادة ان ترسله الى السودان وقال عبارته المشهورة .

«الله يعلم متى تدق الساعة ! وعلى كل فانا لا اريد ان «اعفن» هنا! ارسلونى الى السودان .»

---

(١) من كتاب « حياة غورو » للكاتب بيير كاستينل

حادثة ساموري

سافر غورو الى السودان سنة١٨٩٤ فوصلها في وقت عصيب ثارت فيه القلاقل وكثرت حوادث التعدي والقتل . وكان في نية الحكومة الفرنساوية ان تجمع بين كل مستعمراتها الاتلانتيكية بخطوط اتصال بحيث يتألف منها منطقةواحدة كبيرة تضم مقاطعات السنغال والسودان وبلاد بسام وشط العبيد والكونغو . وكان يقتضى لذلك الاستيلاء على نهرى النيجر « وتشاد » ليصبحا حدوداً لتلك المنطقة الكبيرة وخطاً نهرياً تتدفق عليه صناعة العالم الاوربى الى العالم الافريقى وحاصلات افريقيا الى اوروبا .

ولتحقيق هذا الحلم كان يجب ان يبدأ باخضاع زعماء القبائل السود الذين وقفوا في وجه الاوروبيين زمناً طويلاً . واشهر هؤلاء الزعماء كان ساموري الشهير وهو زعيم كبيرتلتف حوله القبائل السودبقى ثمانى عشرةسنة يحارب الاوروبيين حروباً غير منظمة ويوقع الخراب بكل بلد يصل اليه فكان يدخل البلد فيعيش مع اتباعه على نفقة اهله ثم ينتخب منهم كل من يقدر على حمل السلاح . أما الشيوخ والاطفال فكان يقتلهم كى لايحمل نفسه اعباء الانفاق عليهم . وبعد هذا كان يسير مع من تجمع حوله الى بلد آخر فيفعل فيه مافعل بالاول وهكذا الى ان اصبحت تلك الاقطار بؤرة مصائب وويلات . وكان لساموري الحق ان يفتخر كما افتخر اتيلا قبله « ان العشب الاخضر لاينبت في المحل الذى تطأه حوافر خيله او نعل حذائه » فخطر في بال غورو ان يتولى تأديب هذا الرجل وآلى على نفسه ان يمسك به حياً او ميتاً

فذهب فى مقدمة فصيلة مؤلفة من خمسة ضباط واربعة اونباشية ومائتى وعشرة رجال ، واندفع فى طريق ملوءها المخاطر تكاثرت فيها الوحول وتكدست الجثث حيث انبعثت منها الروائح الكريهة ، وكان الالوف من النساء والاطفال والشيوخ الذين تركهم ساموري خلفه يتضورون جوعاً

اما ساموري فكان معسكراً باتباعه على ضفة الديوغو . وكان موطناً نفسه على الهجوم النهائى فقسم جيشه الى اربعة اقسام تولى قيادة القسم الواحد منها وترك الاقسام الباقية لاولاده الثلاثة . ووصلت الاخبار الى القائد لارتيك بان جيش ساموري مؤلف من اربعة الاف مقاتل مسلحين ببنادق سريعة الطلق وثمانية الاف مسلحين ببنادق مختلفة الطراز والفى فارس وثمانية الاف مقاتل مع بنادقهم الحجرية ومئة وعشرين الف تابع

قلنا ان غورو ذهب بفصيلة صغيرة للاستكشاف فبعد سفرة ملوءها المخاطر والعذابات وصلوا الى معسكر كان ساموري قد تركه منذ ايام وترك فيه مالا يحصى من المرضى والجياع والمتخلفين . فاشار هولاء الى الجهة التى اتجه اليها ساموري.

وبعد مسير اثنى عشر كيلومتراً بين الادغال اشرف غورو على معسكر ساموري فخطر فى باله خاطر هائل وهو ان ينازل المعسكر بغتةً ويقبض على رئيسه ويأخذ سلاحه وسلاح من معه .

وتجسم ذلك الخاطر حتى لبس ثوب الحقيقة . فجمع غورو رجاله وبلحظة عين لكل مهمته واوصاهم قائلاً « اياكم ان ترسلوا طلقاً واحداً فيجب ان نمسك ساموري حياً »

ومشت الفصيلة بهدو وسكوت متناهيين فوصلت الى موقف الحراس واشارت اليهم ان يسلموا والا قتلوا . فسلموا بدون ان ينبسوا ببنت شفة

وتابعت الفصيلة سيرها فوصلت الى الخيام وهى كثيرة لا تحصى وامام كل منها اجتمع النساء والاولاد يوقدون النار ويحضرون الطعام. فنزل الجنود بينهم واشاروا اليهم بالسكوت واخذوا يفتشون على ساموري فوجدوه امام اكبر الخيام جالساً على كرسى طويل وحوله اركان قبيلته

فحالما رآهم ركض الى مربط الخيل وهم ان يفك حصاناً ليهرب الى الجهة الشرقية حيث عسكر اولاده الثلاثة . فتبعه خمسة من الجنود وتمكنوا من امساكه

وكانت الدقائق الاولى — دقائق الذعر والارتباك—قدمرت فعمد اركان القبيلة الى سلاحهم وتجمعوا يريدون الفتك بالفصيلة . فحينئذ صوب الملازم جاكان غدارته على راس ساموري وقال له

« انت ومن معك فى امان اوعز الى مشايعيك ان يسلموا باسرهم والافعنداول طلق نارى تموت » ولما كانت الحياة عزيزة وكان ساموري من محبي الحياة امر رجاله بالتسليم فسلموا واستأسر الملازم جاكان ساموري وسلمه الى الكابتين غورو يداً بيد فاملى عليه ان يكتب لاولاده ان يسلموا سلاحهم وانفسهم وهكذا رجع غورو الى المعسكر الفرنساوى والى جنبه ساموري وخلفه كباراتباعه ونساؤه وعددهن ثلاثمئة واولاده وعددهم ثلاثمئة وعشرون وذخائره وهى :

٦٠٠ بندقية سريعة الطلق
١٠٠٠ بندقية حجرية
٩٠ صندوقاً من الخرطوش
٢٠ برميلاً من البارود
١ مدفع
٦٠ حصاناً

وخلف هؤلاء مشى خمسون الفاً من الاتباع بينهم النساء والاطفال والشيوخ والخدم يخفرهم رجال الفصيلة .

وقال غورو : ماذا افعل بهؤلاء الاقوام ؟ ولماذا أجرهم ورائى فسمح لهم ان يذهب كل بعيالة الى بلده ثم مشى الى جانب ساموري واخذ يغنى . فنظر اليه ساموري وقال : لماذا تغنى ؟ اجاب لانى فرح القلب. فقال ساموري : انت قائد كبير وكبارالقواد يكتمون عواطفهم. انظر الى هل تسمعنى اغنى؟ فضحك غورو ولم يضيع وقته ليفهم ساموري ان الفرق بعيد بين شعور قلبيهما فى تلك الساعة وكثيراً ما ذكر غورو

عبارة ساموری هـذه . فقال انهـا لازمته طول حيـاته . ففى اصعب المواقف — فى مواقف السرور كما فى مواقف الكـدر — كان يكتم عواطفه ويحفظها لنفسه . وكثيراً ماهزه الفرح واشتهى ان يغنى فامتنع متذكراً عبارةساموری. وكان لحادثة ساموری رنة كبيرة فى كل البلاد الفرنسوية وقد تجلت فيها باعظم مجاليها صفات القائد الفطرية الممتازةمن شهامة وظرف وحكمة فائقة وفلسفة سامية ومنذ ذلك اليوم بدأت شهرة هنرى غورو .

حياته فى افريقيا

قضى الجنرال فى افريقيا ثمانى عشرة سنة كلها متاعب ومشاق واسفار ومخاطر . ويتعذر علينا ان نتبعه خطوةً خطوةً طول هذه المدة، فهو كسائر الضباط عاش عيشة الخيام . فى الصحراء والرمال والسهول وعلى رؤوس الجبال . فمشى وتألم وعطش وناضل ، واحتفر الخنادق والآبار وقطع الادغال . ودرس اخلاق الشعوب على اختلاف طبقاتها .

وهيأه ذكاؤه الفطرى ان يستفيد من معاشرة شعوب المغرب اكثر من سواه ، فقد قضى حياته بدرس طبائعهم وتوصل ان يفهم عاداتهم ولغاتهم واديانهم كما لو كان واحداً منهم . فلهذا اعتمده رؤساؤه لكل امر خطير ، فلم يحدث مشكل بين القبائل الا اسرعوا الى « غورو » ولم يعمدوا الى مهمة خطيرة الا انتدبوا لها غورو .

ولقد اصبح من الشائع المعروف ان حياة الغربة تقسى القلوب وتجفف الشعور . على ان هذه القاعدة النظرية لم تنطبق على الجنرال فهو بالعكس ازداد رقة ولطفاً وكياسة ولقد تعلم بمعاشرته لصغـار

المأمورين — من الاونباشى الى العبد المكلف بتكسير الحصى — ان يحترم من هم دونه ويشفق عليهم ويهتم بحاجاتهم اليومية . فكان همه الكبير ان تكون فرقته حاصلة على كل اسباب الراحة وان لا يطالب من الجندى الا مايقدر على اعطائه بطيبة خاطر . وله عبارة مشهورة جاء فيها ما معناه :

« اعطوا الجندى زاداً وراحةً واهتماماً وعطفاً يعطكم الشجاعة والجهاد والمفاداة وهذه الخطة التى كان يسلكها مع جنوده لا يزال ينهجها فى ادارة الشعوب المسلمة الى عهدته .

وبعد حادثة ساموری ذهب غورو الى باريس وتعين فى « اميان » وهناك تعرف الى قائد مئة (كاپيتن) واتيح له ان يوثق عرى صداقة متينة قامت على اتفاق فى الرأى والفكر . وهذا الكاپيتن يدعى اليوم المارشال « پيتان » . وهكذا اشاءت الصدف ان يكون القائدان الكبيران اللذان جمعتهما الاقدار مرة ثانية ليكونا يداً واحدة فى العمل المجيد صديقين صميمين

وفى سنة ١٩٠٠ تعين غورو وكان قد صار قائداً (يوزباشى) فى احد فيالق المشاة ولكنه سمع بثورة البوكسر المشهورة فى الصين فاحب ان يلقى بنفسه فى هذا الخطر الجديد وانخرط فى سلك الحملة الاوروبية التى توجهت لقمع تلك الثورة بقيادة الفيلد مارشال الالمانى ولدرسى .

ولكن كيف يفسر الانسان الصدف والاقدار ؟ كيف يمشى الانسان فى طريق فيعترضه فيها من يرده عنها ويدفعه الى سواها ؟

هكذا جرى لغورو فانه بعد ان قيد اسمه فى حملة « البوكسر » لبث ينتظر ساعة سفره . وبينما كان ذات يوم يمشى فى احد الشوارع استوقفه الكولونيل بيروز وقال له : تعال معى : لقد عهد الى بتاسيس نقطة اتصال بين نهرى النيجر والتشاد وفكرت ان استصحبك .

وهكذا رجع غورو مرة ثانية الى افريقيا . وعانى ما لا يتصوره عقل انسان فى تلك المفاوز والقفار . واضطر الى الدخول فى معركتين هائلتين ضد غزاة التوارق (١) الجأتهم بعدهما الى السكون . وفى تلك

(١) او يضبط بالكاف العجمى هكذا التوارك ، ومفرده تارق او تاركى اسم لبعض قبائل البرابرة القاطنين بصحراء افريقيا الغربية وهم ملثمون ؟

الاونة صدر الامر للكولونل بيروزان يرجع الى فرنسا فترك القيادة لغورو الذى بقى فى تلك الارجاء الى سنة ١٩٠٢ . وفى غضون هاتين السنتين نال الحنكة التى امتاز بها — كما اقر هو بذلك — وتعلم كيف يتفاهم هو ورؤساء القبائل والشعوب الافريقية . ويمكن القارىء ان يتصور عظم المسؤولية الملقاة على عواتق القواد فى افريقيا ، فعليهم قبل كل شىء ان يحاربوا العصاة ، وان يحفظوا خط المواصلات ، وان يؤمنوا الزاد ، ويصلحوا ما يخرب الثوار ، ويحسنوا السياسة ، والادارة ، والدوائر التجارية والعدلية والمالية ، ويوجدوا خطوط اتصال جديدة ، ويحفروا الابار ، ويخفروا القوافل . كل هذا مع الخوف الدائم من ان القيادة لا توافق على ما يفعلون .

على ان غورو ما اساء مرةً الى رؤسائه ، بل كانوا يصوبون ما كان يفعل ، لانه لم يفعل الا كل ما ينطبق على الحكمة ، والشرف ، والعدل والتروى ، والدربة .

وتقدمه فى السلك العسكرى ذلك التقدم السريع يرجع الى اعماله فى مراكش . فقد اتى اعمالاً مدهشة فى تسكين الثورات كان همه فيها ان لا يهرق الدم ولا يربى العداوة فى صدور القبائل . فحرب الادرار كلها ، وثورة الموريتانيين والدخول الى فاس كل هذه الاعمال العظيمة لم يسفك فيها من الدم الا ما يسفك فى المناوشات الصغيرة ذلك لانه كان يتذرع بكل الوسائل التى توصله الى الغاية قبل ان يعمد الى المدفع .

وهكذا نال غورو المكافاة من حكومته . فبعد معارك الادرار حصل على وسام ربطة جوقة الشرف . وبعد دخوله الى فاس نال النجوم الثلاث ورتبة جنرال . ووسام «ضابط اعلى فى جوقة الشرف » اما ارفاقه فحبهم له ممزوج باحترام شديد ، وله فى قلوب ضباطه نوع من العبادة ، فهم يثقون بنزاهته وبصدقه وباخلاصه ، ويعرفون ان وراء ذلك الوجه الهادى عزماً حديدياً ومع ذلك العزم قلب شفوق عطوف وتظهر ثقة ضباطه به وتسابقهم الى الموت بين يديه فى الحادثة الآتية :

عهد يوماً بمهمة خطيرة صعبة الى احسن ضباطه واحبهم اليه ،

فنجحت المهمة ولكن الضابط لقى حتفه . فاسرع بقية الضباط الى الجنرال وقالوا « انك اعتمدته لانه كان الاحسن فينا والاحب اليك ، فهذا مايحدو بنا ان نبكيه ونأسف لفقده »

اما الجنود واعنى بهم صغار الجنود ، فهو لهم الاب الحنون ، ولم تخلق السماء قائداً مثله يهتم بكل امر من امور جنوده ، فهو القائل:

« ان الجندى الذى ينام تحت المطر والشمس — اذا تيسر له ان ينام — والذى يأكل واقفا — اذا تيسر له الاكل — لهو جدير بكل اهتمام » .

وهكذا تراه يسير بين الصفوف ، ويتفقد بنفسه حفر الخنادق ، وبناءالجسور وطبخ الطعام . فهو بين الجنود دائماً ابداً . واحب الامور لديه هو ان يستعرضهم عن كثب ليطلع على احتياجاتهم ، ويشاهد مفاداتهم ، ويرى بعينه هفواتهم . وله حافظة عجيبة وقلب مفعم بالجميل . فيحفظ فى ذا كرته كل بادرة من بوادر الشجاعة ويكافئ من كل قلبه كل عمل — مهما كان صغيراً — ويعلم الله كم وزع فى الحرب الاخيرة من الاوسمة وكم لفظ من عبارات الشكر والتنشيط . قيل له يوماً ان احد الجنود وقف مرة مدة ثمانى واربعين ساعة بمعزل عن رفاقه، يدافع عن احد المراكز وكان وراءه بيت يحترق فاضطر ان يضع خلف ظهره كديساً من الجثث لئلا يتصل اليه اللهيب ! ففى اليوم الثانى اصدر غورو الاوامر بجمع الفرقة فخرج الجنود من الخنادق بما يعلو ثيابهم من الوحول ووقفوا . فنادى غورو الشاب ان يخرج من صفه الى الساحة ووصف ما اتاه بالامس ثم صافحه وقلده الوسام

ويعتقد الجنرال ان المشتركين فى عمل واحد يجب ان يكون لهم راى واحد . فهو لا يترك سانحة دون ان يجتمع بضباطه واركان حربه . ويحادثهم ، ويأكل معهم ، ويقف على ارائهم ويفصل ما يطرأ بينهم من الخلاف البسيط ليكونوا دائماً فكراً واحداً ، وقلباً واحداً .

معارك شمبانيا

كثير من الناس لايعرفون الجنرال الا باسم قائد الجيش الرابع ، الذى تولى قيادته اربع سنوات متوالية .

فى اوائل الحرب طلب غورو من الجنرال ليوتى ان يسمح له بالذهاب الى الساحة الغربية . فتوصل بصعوبة الى استحصال امر بالسفر فغادر مراكش ووصل الى « بوردو » ومنها توجه الى حيث انيط به امر تاليف « جيش المستعمرات » فالفه ولم يستلم قيادته لانه دعى فى اواخر ايلول الى قيادة الفرقة العاشرة مكان الجنرال روك المقتول .

وكان هذا الجيش — بنوع خصوصى — فى حالة سيئة من الوجهة المادية فتمكن الجنرال فى مدة وجيزة من اصلاح احواله وجعله من احسن الجيوش وقد ادى فى اثناء الحرب خدمات جلى يرجع الفضل فيها الى مصلحه العظيم .

فكان غورو يسير بين الجنود مستنهضاً همم الرجال ومثبتاً ايمانهم ، وكثيراً ما وقف الساعات الطوال فى الخنادق وهو يمرن الجنود بنفسه . وبعد مدة التزم ان ينجد الجيش الثانى الذى كان معرضاً لنيران الالمانيين فاشترك فى عدة معارك جرح فى احداها فى كتفه جرحاً بالغاً وقد بلغ من جلده انه نهض فى اليوم الثانى بالرغم عن معارضة الاطباء ومشى فى جنازة احد ضباطه القومندان دازك . وبعد ذلك تعين على راس « جيش المستعمرات » فى شمبانيا ولم يبق هناك سوى ثلاثة اشهر بعد ان صير تلك البقعة شهيرة بما اتى فيها من اعمال الدفاع .

ثم تعين لحملة الدردنيل ويعرف القراء كيف جرح وكيف رجع الى فرنسا مشوهاً وبعد سفرة قصيرة الى ايطاليا رجع الى الساحة وهو لم يشف تماماً ولم يتمكن من استخدام جسدم الكلوم الا بفضل ارادته الحديدية . وهناك استلم قيادة الجيش الرابع فاستقبله الجنود والضباط كما

يستقبلون رسولاً سماوياً ، اذ ان شهرته كانت تسبقه الى كل مكان ، وليس بالشيء القليل ان يحيي الانسان في محيط لا يلاقي فيه ايما توجه الا الاحترام ، والحب ، والطاعة

وبعد وقت قصير ملك زمام كل من كان تحت قيادته فتشرب رجاله افكاره ، ومبادئه ، واوامره ، وكل مشتهيات نفسه . وهي كلها تحوم حول الاتحاد التام في الافكار والاقوال والاعمال بين كل طبقات الجيش

بقي الجنرال مدة طويلة في تلك الاصقاع يعد المعدات حتى اصبحت مقاطعة شمبانيا اشبه بمعمل حربي كبير ، وكان يصد هجوماً صغيراً من هنا وهجوماً صغيراً من هناك ويعتقد في الوقت نفسه ان الساعة الهائلة، ساعة الهجوم الاخيرة، ستدق عن قريب ، لهذا اراد ان يكون مستعداً لكل الطوارئ.

اما القيادة الالمانية فما كان ليخطر ببالها ان النصف الثاني من سنة ١٩١٨ سيجلب لها الويل والهلاك فان الالمان بدؤا من شهر آذار بهجومهم الكبير وكادوا يلقون بالجيش الانكليزي الذي كان بقيادة الجنرال غوف (Gouph) الى البحر ويستولون على « اميان » بعد ان يدحروا الجيوش الافرنسية على «الاين» «والواز» ويجهوا الى «كومبيين»

وفي اول حزيران ظهر استعداد للهجوم على الجيش الرابع فاحتاطت القيادة الافرنسية للامر وجعلت ذلك الجيش على اتصال دائم مع جيوش الحلفاء وذخائرهم

وكانت « باريس » « وابفيل » محط آمال الالمانيين . فافتكروا ان يستولوا على المدينة الاولى لاضعاف القوة المعنوية وعلى الثانية ليخرقوا الجبهة بين جيوش الجنرال بتان والسير دوغلاس هايج . ولاجل الحصول على هذه النتيجة كان عليهم ان يخرقوا جيش الجنرال غورو . لهذا جاءت الاخبار للقيادة الفرنسوية ان كل القوى الالمانية تنسحب من امام الجنرال مانجين وتتجه كلها الى الجبهة المقابلة لجيش غورو

وصدر الامر لغورو « بوجوب ربح المعركة الدفاعية والوقوف سداً منيعاً في وجه الالمان وقوفاً قطعياً » وكان لديه اربع عشرة فرقة مجهزة بكل ما وصلت اليه الفنون الحربية من الكمال

اما الالمان فما خطر ببالهم انهم سيلاقون مقاومة كبرى ، بل تصوروا انهم بتوجيه كل قواتهم الى تلك الجبهة يخرقون الخطوط الاولى ويتجهون من هناك الى باريس

ولكن جنود تلك الخطوط الاولى — الذين قطعوا كل رجاء بالحياة — عولوا وهم ذاهبون الى الموت ان لا يبيعوا نفوسهم رخيصة . انهم فهموا معنى التضحية وفهموا انها لا تنفع مالم تكن كاملة فلهذا ارادوا ان يذيبوا جلد الالمان قبل ان ينسحبوا

ورتب غورو خطته هكذا :

خطوط دفاع اولى تؤلف من شراذم هنا وهناك وتملك من المتراليوز والطيارات والحمام والغازات السامة الشيء الكثير . هذه الخطوط يجب ان تثبت ما امكن حتى تعتقد انها خففت من حدة الهجوم وان المهاجم لم يعد قوياً كما كان ، وتتمكن من اخبار مركز القيادة عن حركات العدو وعدد مدافعه وساعات هجومه ساعة فساعة ودقيقة فدقيقة .

وبعد ان تفعل حامية الخطوط الاولى ما عليها تنسحب من خنادقها الى الخطوط المتوسطة والخطوط المتوسطة تقع بين خطوط الدفاع الكبرى ويصل هذه الخطوط ببعضها عدد عظيم من الخنادق ولكل حامية من الحاميات دور تقوم به ومن مجموع هذه الادوار تتالف الخطة الدفاعية . فبعد ان ينسحب حماة الخط الاول الى الخطوط المتوسطة يقومون مع حماتها بدفاع اتم واشد من الاول ثم ينسحبون الى خطوط اخرى الى ان يصلوا الى السد المنيع الذي لا يؤخذ والذي تجمعت فيه كل القوات فينشأ عن ذلك الهجوم المعاكس — قبل ان يستريح الالمان في الاماكن التي احتلوها — .

فكان على كل قائد وكل ملازم وكل جندي ان يستظهر دوره . اما القائد الاكبر فكان عليه ان يتمكن من الحصول على الاخبار الصحيحة ليعرف ساعة الهجوم تماماً

وفي يوم ١٤ تموز الساعة الثامنة دخل الكولونل بتيلا — رئيس اركان الحرب — الى غرفة الجنرال وناوله الوريقة التي تشير بقرب

الساعة . فان شرذمة من الشراذم التى تدبر للمهمات الخطيرة — تمكنت من القبض على سبعة وعشرين جندياً المانياً كلهم يحملون الاوامر المختومة ، وكلها تشير ان ساعة الهجوم الكبير ستكون الرابعة بعد نصف الليل يوم ١٥ تموز .

فجلس غورو الى مكتبه ووقع بيده اليسرى — يده الوحيدة — الاوامر الى رجاله ، وجلس ينتظر رفع الستار ليرى اخر فصل من تلك المأساة الهائلة التى سيلفظ فيها الحكم الاخير على وطنه وعلى امته.

ولقد يتساءل القراء عن حالة القائد الروحية وهو حامل فى قلبه مسؤولية موت امته وحياتها — هذا اذا اعتقدنا انه قد من صخر وانه يقدم شبان بلاده — الضحية اللازمة لحياة — بدون ان يقطر قلبه دماً ! !

وهنا يعمل غورو بوصية ساموري « انت رجل كبير وكبار الرجال يكتمون عواطفهم » فيخفى تأثره عن كل انسان لانه يعتقد ان كلا يحمله على اكتافه حملاً كافياً فلا يجب ان يزيد عليه درهم . وهكذا فان توقيع غورو لتلك الاوامر كان جلياً وصوته هادئاً ، واوامره واضحة ، اما الذين يقرأون بالعيون والذين استلموا تلك الاوامر من يده فقد قالوا عنه : ان سحابة حزن عميق كانت تجلل ذلك الوجه الهادى فى الظاهر .

وفى الساعة الحادية عشرة ونصف الساعة مساءً بدأت المدفعية الفرنساوية فجأة باطلاق عشرات الالوف من القنابل نجاوبتها المدافع الالمانية بعد نصف ساعة — عند منتصف الليل — بمدافعها الضخمة اما حامية الصفوف الاولى التى كان عليها ان تودع الحياة فاصبحت مخرقة « كقماش المناخل ! »

ودافعت الصفوف الاولى اكثر مما ينتظر منها ثم تركت الخطوط الاولى للالمانيين الذين هجموا برؤوس الحراب الى امام الخطوط المتوسطة وهنالك وجدوا من المقاومة ما لا يتصوره عقل بشرى ومضى ذلك النهار بعراك دامٍ ، وجهاً لوجه ،

وعبثاً استأنف الالمانيون هجومهم في اليوم التالي — ١٦ تموز — فلم ينالوا من الجيش الرابع شيئاً بالرغم عن اجتيازهم الخطوط الاولى وقطعهم المارن . لان خطتهم بخرق جبهة الجيش الرابع فشلت تماماً . فاخذتهم تلك الخطوط اضعفهم بدل ان يقويهم فاغتنم غورو هذه الفترة وشن هجومه المعاكس فقطع المارن من جديد ومنذ ذلك اليوم بدأت المعركة الكبرى التي دامت ستين يوما والتي انتهت بالنصر الكبير الذي بدأ من شمبانيا وامتد على كل الخطوط .

قال احد الكتاب العسكريين :

« غداً يكتب المؤرخون تاريخ الحرب الكبرى ، وسيقرأ الناس الدور الذي قام به غورو وجيشه الرابع . فقد دام هجومه خمسة واربعين يوماً . قالت له القيادة العليا هنا يجب ان يقف الالماني ، فاوقفه ، وقالت له الى هناك يجب ان تتبعه ، فتبعه .

ولن نجد وصفاً ينطبق على مزايا هذا القائد كالوصف الذي فاه به احد جنوده . فعند انتهاء الحرب اولم غورو وليمة كبرى للجيش الرابع حضرها وفود من اصغر اقسام الجيش . فكان يتمشى بين موائد الآكلين فيخاطبهم من القلب الى القلب وبعد انتهاء الوليمة وقف اكبر الجنود سناً وقال « ايها الضابط الكبير ، ذو المزايا النفسية العالية لقد اتيح لك ان تزيد صفحة اخرى الى تاريخك المجيد

ايها القائد الاول ، المحبوب من الجندي لانك تحبه ، لقد قطعت هجوم ١٥ تموز ، ونفخت بيونسك الشعلة الالهية التي تحيا بها ، ومنحت كل فوادك الثقة العمياء ، والاخلاص ، والوطنية ، هذه الصفات التي تتمثل بشخصك الكريم »

قال احد حاضري تلك الوليمة . « وبين تهليل الجنود الذي كاد يصم الآذان سمع غورو نائب فرنسا الحي يختلج بعاطفة الشكر والحنان فكان ذلك خير مكافأة نالها في حياته

مواهبه الادبية

. للجنرال غورو ولع بعلوم الادب ، وله انشاء متناهٍ في السلاسة والرقة تظهر فيه اخلاقه واضحة . فعبارته منسجمة رائقة ، وجملة واحدة من كتاباته تغني عن صفحات عديدة . فهو من هذا القبيل كثير الشبه بالجنرال ليوتي الشهير .

وهذا تعريب شيء منها :

الى سكان موريتانيا

لقد ارسلني الجنرال ليوتي وارسل معي الحرب او السلام . من هنا ترون انى مفوض اقدر على ايقاع الاذى بكم . على انى لا اريد لكم الشر بل الخير

يمكنكم ان تتأكدوا انى لن اترك هذه الديار قبل ان اوطد الامن الذي به تعيشون . لقد وصلت لهذه البلاد فلم اطلق قنبلة ولا احرقت كوخاً ولا خربت بيتاً ولكنكم بدأتم بالحرب والتخريب فانتم البادئون وانتم الجانون . ولقد خضعتم وطلبتم الامان امام مظاهر القوة . القوة قاسية ولا تشفق لهذا ادعوكم ان لا تحرجوني فتحوجوني الى استعمال المدفع مرة ثانية ، فلا تصغوا لصوت كل ثائر يهب من الصحراء ويدعوكم الى ايقاع الحرب بمن حولكم لان ذلك يؤدي الى خرابكم ايضاً . اذا قمتم بهذه الشروط تنالون الأمان على نفوسكم واموالكم وعيالكم والمساعدة اللازمة لكل ماتريدون »

وكتب الى جنود الحملة الشرقية « حملة الدردنيل » يوم استلم القيادة.

« ايها الجنود : عندما تمشون الى مراكز العدو افتكروا انكم تحاربون على هذه الارض التركية عدوتكم الكبرى المانيا ! فهي قد قلبت الاتراك علينا بعد ان كانوا اصدقاء ، ولهذا أوصيكم ان لاتسيئوا الى الاتراك بل عاملوهم بالحسنى .

ايها الجنود : انكم ستحاربون بشجاعة كما يفعل رفاقكم فى فرنسا الذين يأخذون كل يوم من العدو الخنادق والتلال والذين يحاربون تحت نار احمى من نار الاتراك . الى الامام ايها الجنود وليحيي الوطن!

وكتب الى جيوشه قبل معارك ١٥ تموز ما يأتى :

الى الافرنسيين والاميركيين فى الجيش الرابع ،

ايها الجنود اننا نتوقع الهجوم بين الدقيقة واختها . انكم تشعرون بلا ريب ان ما من معركة دفاعية نشبت فى احوال اكثر مناسبة من احوالكم . نحن نتوقع الهجوم وقد اخذنا له العدة الكاملة فمشاتنا ومدفعيتنا على اتم ما يمكن .

انكم ستجاهدون فى هذه السهول التى صيرتموها بعزمكم الحديدى برجاً منيعاً . هذا البرج لن يؤخذ اذا حفظت كل مداخله ومخارجه . ان اطلاق القنابل سيكون هائلاً ولكنكم ستحتملونه بدون تراجع . سيكون الهجوم شديداً ، سيكون ضمن غيوم من الدخان والرماد والغبار والغازات السامة ولكنكم ستحتملونه لان قواكم لا تقهر ومن وراء صدوركم تخفق قلوب رجال ، احرار ، شجعان ، اقوياء .

لا يلتفت احد منكم الى الوراء . لا يتراجع احد منكم خطوة ولا يكون لكم جميعاً الا فكر واحد ، دافعوا — دافعوا — دافعوا ، الى ان تعتقدوا انكم دافعتم كفاية . لهذا يقول لكم قائدكم : ايها الجنود : ستردون هذا الهجوم وسيكون يومكم يوماً مجيداً !

ووقع الهجوم المنتظر وفاز الجيش الرابع ذلك الفوز الباهر فوزع غورو على جنده البلاغ الآتى :

الى رجال الجيش الرابع

لقد رددتم الهجوم فى يوم ١٥ تموز فكسرتم قوة خمس عشرة فرقة المانية مع عشر فرق احتياطية .

لقد كان على هذه القوات — حسب الاوامر المعطاة لها — ان

تعبر المارن فارتفعوها حيث اراد الوطن ان تقف .

يحق لكم ان تفتخروا ، ايها الشجعان الذين وضعوا صدورهم امام الصفوف الاولى ، وانتم ايها الطيارون الذين وقفوا على حركات العدو ، ايها المشاة ، ايها الخيالة ، كلكم فاديتم ويحق لكم جميعاً ان تفتخروا .

لقد كانت الضربة هائلة على العدو ، وكان بها لفرنسا نصر جميل !

لهذا اشكركم من كل قلبي ، الذي هو قبل كل شيء قلب جندي !

ويعلم القراء كيف طارد الحلفاء الالمانيين بعد ان ردوا هجومهم فاصبحوا هم المهاجمين فوزع غورو البلاغ الآتي :

« الان وقد دقت ساعة الهجوم ، اعرب لكم ، انا قائدكم ، عن ثقتي العظيمة . لقد ربح الجيش الرابع معركة ١٥ تموز التي سمحت لكل جيوش الجبهات الاخرى ان ينالوا الظفر تلو الظفر .

ولقد جاء دورنا الان . فالى الامام ، الى الامام مع كل الذين يهاجمون مثلنا ! »

ومن اقواله يخاطب اللبنانيين .

ايها اللبنانيون !

ان آفة المهاجرة تهددكم بالموت في نفس الوقت الذي قدمت فيه فرنسا ، ام الجبل ، حاملة اليه الحياة .

فباسم فرنسا وفي سبيل شرفها اريد ان اشتغل معكم لاستخراج المدفون من الكنوز في ارضكم

ان في اراضيكم مياهاً غزيرة تولد لكم القوة وتاتيكم الخصب .

ان لديكم اراضي هي ميراث الاجداد وعلامة ثباتهم الجميل ، عليكم ان تحسنوا الزراعة فيها وتعدوها لمنافع اكثر ايراداً اما انا فساهتم بالصناعة البيتية واوجد لمسائلكم المواد الاولية واضمن بيع مصنوعاتهن في البلاد البعيدة . وكذلك بفضل حسن الادارة سيصبح هذا الجبل مطمح انظار الزائرين من البلاد المجاورة .

ان من الجنون ان تتركوا هذه البلاد الجميلة ، مع ان الكثيرين من البشر يتوقون للسكنى فيها والتمتع بمحاسنها .

ايها اللبنانيون : قليلاً من الصبر ، فان الحالة ستتحسن بفضل جهادكم ومساعدة اصدقائكم . لاتيأسوا من العراك لاجل سعادة هذا الجيل ولا تفروا من المعركة فان طائفة قوية قدمت مرة اخرى لمساعدتكم . »

دخول الجنرال الى الالزاس

في ٢٢ تشرين الثاني سنة١٩١٨ انتدبت الحكومة الفرنسوية الجيش الرابع ليكون اول من يدخل ستراسبورغ .

ودخل غورو بجيوشه دخول الخاص . فكان منظر هذا « المشوه المجيد » على جواده كهزة كهربائية اصابت كبد الالوف من الالزاسيين الذين كانوا يملأون الشرفات ، والمطارح ، والطرقات ، والنوافذ. ولقد نقلت جرائد العالم وشركات السينماتوغراف صورة ذلك المشهد التاريخي المؤثر ولكن الخيال ابدى كالحقيقة فالذي لم ير ذلك التجمس ، وتلك الوجوه الضاحكة ، والدموع الدامعة ، والجنود الصغار يدخلون ظافرين الى الساحة التي خرج منها اباؤهم سنة السبعين ، وقصر « القيصر » والوف الايدي تصفق ، والبنات ينثرن الازهار على الظافرين ، والاعلام تلوح ، والموسيقى تصدح بالنغم الوطني الذي يقيم القلب الفرنساوي ويقعده ، ان الذي لم ير هذا المنظر لم ير شيئاً .

. . . .

لقد قيل عن غورو انه من جملة رجال السعد الذين خدمتهم الايام ، وبالحقيقة ان السعد خدم هذا الرجل حيث حل واين توجه . فلم يتول

عملاً الا فاز به ولا دخل بلداً الا اصلح احوالها . فهو لم يعرف الفشل في حياته . ولكنه عرف صعوبات الحياة ومرارتها — ففي احلى ساعات النصر ساعة دخوله الى ستراسبورغ ماتت امه وكان يحبها حب عبادة. وفي الايام التي كان يحمل فيها عبء القيادة كان الحداد مخيماً على بيته.

واليوم اصبح هذا الرجل الذي نقرأ تاريخ حياته هنا مكافاً بمد اليد الى سوريا الجريحة ، ان مهمته صعبة محفوفة بالمخاطر ، فسوريا اصبحت بؤرة مشاكل نمت فيها اشكال الخلاف الفكري والسياسي فكل يغني على ليلاه ، وكل يطالب بالمستحيل ، وكل يريد الاصلاح العاجل ، وكل يخبط بينهما اورثتنا اياه القرون المظلمة من الافكار القديمة ، وما اعطتنا المدنية الحديثة من المبادىء الصعبة التطبيق على شعب استلمه الفاتحون الواحد بعد الاخر ، واماتوا فيه — عواطف الوطنية ، والارادة ، والشخصية ، والتضحية ، ومعرفة الواجب ، ولم يبقوا فيه الا حياة قلقة ، حذرة ، تجهل معنى الحياة ، حياةً هي بين الموت والحياة .

فعسى ان يستعمل الجنرال مواهبه السامية الكاملة في هذا الشرق ، وعساه يتمكن من اصلاح ما خربته العصور فيسير بالشعب السوري في الطريق التي تجعله شعباً حياً ، يحيا بالوطنية ، والحرية ، والتقدم الكامل ويجد فيه خير مساعد لانجاز مساعيه المبرورة الايلة كلها الى خير الوطن واسعاد البلاد .




re.
944
2
Bibliotheca Alexandrina
04490832